

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦))
[هود : ١١٦] .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض .
(إِلَّا قَلِيلًا) أي : قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيِّره، وفجأة نِقَمته .
ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .
كما قال تعالى (وَتُكْرِمُنَا مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .
وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب) .
● ففي الآية إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، حلت بها المصائب والنكبات .
ولولا : حرف تخصيص بمعنى هلا .

والمقصود بالتخصيص هنا تحذير المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .
● وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له عقوبات :

منها : نزول عقاب الله وعدم استجابة الدعاء .

عن حذيفة ؓ ، عن النبي ﷺ ، قال (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ) رواه الترمذي ، وقال : « حديث حسن » .
ومنها : أن ذلك من صفات المنافقين .

قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) .

ومنها : نزول البلاء والعذاب العام .

قال تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) .

والتَّحْقِيقُ فِي مَعْنَاهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَعْمُ الظَّالِمَ وَغَيْرُهُ هِيَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ ، صَالِحُهُمْ وَطَالِحُهُمْ ، وَبِهِ فَسَّرَهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ شَاهِدَةٌ لِذَلِكَ .

ولما قالت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها : (أهلك وفينا الصالحون ؟) قال لها الرسول ﷺ : نعم ، إذا كثر الخبث) .

وكما في الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) .

ومنها : اللعن والإبعاد من رحمة الله .

قال تعالى (لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

قال ﷺ (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً ،

أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) . رواه أبو داود

ومنها : انتفاء خيرية الأمة .

لأن الله علق خيرية هذه الأمة بالقيام بهذه المهمة ، قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

قال القرطبي : مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم .

ومنها : ظهور المعاصي والمنكرات وانتشارها .

ومنها : استعلاء أهل الشر والفساد .

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة، فكفروا النعمة، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، حتى فجأهم العذاب. • وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله تعالى مع ترك شكره سبحانه عليها.

والترف: هو الشخص الذي أبطرته النعمة، فانغمس في الشهوات والمعاصي، وأعرض عن الأعمال الصالحة ...

• أهل الترف هم أعداء الرسل غالباً ، وقد جاء ذلك في القرآن ، حيث لم يذكر الترف إلا في مقام الذم.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) .

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) .

وقال تعالى (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا]) .

(وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) أي : مصرين على ارتكاب الجرائم .

الفوائد :

١- أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع سبب لعدم نزول العذاب .

٢- الترهيب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣- أنه لا تزال توجد طائفة على الحق حتى تقوم الساعة .

٤- أن القيام بهذه الشعيرة سبب للنجاة .

٥- خطر الترف ، وأنه سبب للطغيان .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

[هود : ١١٧] .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) أي : وما كان ربك -أيها الرسول- ليهلك قرية من القرى وأهلها

مصلحون في الأرض، مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.

كما قال تعالى (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) .

وقال (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

الفوائد :

١- أن سبب هلاك الأمم ظلمها وتكذيبها .

٢- تنزيه الله تعالى عن الظلم وذلك لكمال عدله .

٣- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٤- أن الإصلاح وعدم الفساد سبب لعدم تعذيب الله .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)) .

[هود : ١١٨ - ١١٩] .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي : ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس

جميعاً أمة واحدة مجتمعاً على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، ليميز الخبيث من الطيب .

كما قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) .

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) أي : ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

(إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ) أي : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم

يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ، ونصروه ووازره ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛

لأنهم الفرقة الناجية .

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) اختلف العلماء في المشار إليهم بقوله (ولذلك ..) على أقوال :

القول الأول : أن المشار إليه (إلا ما رحم ربك) أي : وللرحمة خلقهم .

وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

قالوا : إن عود الضمير إلى أقرب مذكور أولى من عودته إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين هنا : الرحمة ، والاختلاف أبعدهما .

القول الثاني : أن الإشارة للاختلاف ، أي : وللاختلاف خلقهم .

وبهذا قال الحسن ، وعطاء ، ومالك .

ورجحه ابن جرير الطبري ، والقاسمي ، والشنقيطي ، وابن عاشور .

لقوله تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

قالوا : ففي هذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنة ، وأقواماً آخرين للضلالة والنار .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه (ثم يبعث الله إليك الملك فيؤمر بأربع كلمات : فيكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد " .

وروى مسلم من حديث عائشة . رضي الله عنها (يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق

النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم) .

وفي صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو . أن رسول الله ﷺ قال (إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات

والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء) .

- وإذا تقرر أن قوله تعالى (ولذالك خلقهم) معناه : أنهم خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض . فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآية ، مع قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقد اختلف العلماء في الجمع بين الآيتين على أقوال :

أصحها : أن الله تعالى ذكر في قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الغاية التي من أجلها خلقوا وأمروا بها، وفي قوله (ولا يزالون مختلفين) الغاية التي إليها يصيرون، وكلتاها مرادة له . فالإرادة في قوله (ولذالك خلقهم) إرادة كونية قدرية، وهي التي بمعنى المشيئة التي يتعين فيها وقوع المراد وهي عامة فيما يحبه الله وما لا يحبه .

وأما الإرادة في قوله (وما خلقت الجن ...) فهي إرادة شرعية دينية ، وهي التي بمعنى المحبة التي لا يتعين وقوع المراد ، وهي تختص فيما يحبه الله سواء وقع أو لم يقع .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس . وله الحجة البالغة والحكمة التامة .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ . وَقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغَرَّتُهُمْ قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي . وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ تَقُولُ قَطُّ قَطُّ . فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِي وَيُرْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلُمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا » .

(جهنم) سميت بذلك إما لبعدها، من قولهم: بئر جهنم، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي .

مباحث تتعلق بالآية :

مبحث : ١

- في الآية أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .
 كما قال تعالى (وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .
 وقال تعالى (وَلَقَدْ دَرَأْنَا لْجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ) .
 وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) .
 وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) .

مبحث : ٢

واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين :

القول الأول : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار .

وهذا قول أبي حنيفة .

لقوله تعالى : (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

القول الثاني : أنهم يدخلون الجنة .

وهذا مذهب الجمهور .

لقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) والخطاب للإنس والجن .
 ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) .
 ولقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) .
 ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل .
 وهذا القول هو الصحيح .

مبحث : ٣

إثبات الجن ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .
 قال تعالى : (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) .
 وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .
 وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنَّ يَشْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) .
 وعن أبي سعيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : (إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) .
 وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون). رواه البخاري
 وقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار). رواد مسلم

مبحث : ٤

أن الجن مكلفون ، ولذلك يعاقب عاصيهم ويثاب مطيعهم .
 قال ابن رجب : والجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليس مماثلين للإنس في الحد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحد ، لكنهم شاركوا الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .
 قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .
 ويقول تعالى يوم القيامة مخاطباً كفرة الجن والإنس موجهاً مكبتاً : (يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَزَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

الفوائد :

- ١- حكمة الله في جعل الناس مختلفين .
- ٢- حكمة الله في وجود الحق والباطل .
- ٣- أن الموفق من وفقه الله لاتباع الرسل وهديهم ليكون من المرحومين .
- ٤- لا بد من أن تمتلئ جهنم من الإنس والجن الكفار .
- ٥- أن الجن مكلفون كالإنس .
- ٦- إثبات جهنم

